سيدة البيت العالي

محمد الخالدي

مَنْ هذي الفارِعَةُ المِعْطِيرُ
تمشي فتكادُ تطيرُ
ما مرَّتْ بالحيِّ مساءً
إلاَّ فتّحَ زهرٌ وانْسابَ عبيرُ
مَنْ هيَ؟ - سألْنا النّادِلَ والحارسَ
- هذي سيّدةُ البيتِ العالي، هذي
«نُورُ»
- ومَنْ «نورُ»؟
- امرأةٌ لمْ نرَها من قبلُ
- متَى حلّتْ بالحيِّ، متَى؟
- لا ندري! لكنْ قيلَ لها خَدَمٌ
وأوَانٍ من خزَفٍ صينيٍّ
ولها مرْآةٌ عَرْضَ الحائطِ، سربُ
حمامٍ
وحديقةُ وردٍ جوريٍّ
ونوافذُ عرّشَ فيها اللّيْلكُ والنّسرينُ
لها ما شئتَ من الدّيباجِ،
لها أكداسٌ من ياقوتٍ وجواهِرُ

شتَّى...
ورَوَتْ «أمُّ الخيرِ»:
صحبْتُ طويلاً سيّدةَ البيتِ العالي
كنتُ أراها تنْضُو عند اللّيلِ ملابسَها
لم أشْهَدْ كمَفاتِنِها أبَداً
سبْحانَ الخالقِ سوّاها
وأتَاها
دَلاًّ وجمالاً لم يمْنَحْ
مثْلَهُمَا لسِوَاها
فتنَتْ كلَّ نساءِ الحيِّ، تمنّاها
كلُّ العشّاقِ وهامُوا فيها
كتبُوا فيها الأشعارَ ومَا برِحُوا
يصِفُونَ مغَانِيها...

وروت «أمُّ الخيرِ»... رَوَتْ:
- حلّتْ «نورُ» جدائلَها يوماً تحت
الشّمس
فهبَّ النّورُ يُعانقُها

←

ويَوَدُّ لَو انْسَاحَ على قدميْها
وسعى الشّجرُ المِعطَارُ إليْها
ليُظلِّلَها خوْفَ الشّمسِ عليْها

حدَّثَ أهلُ الحيّ: تعودُ مساءً
فيُضَاءُ البيتُ، تُضاءُ حديقتُه الغنّاءُ
ويأْتي السُّمَّارُ:
نِساءٌ في أجملِ زينَتِهِنَّ،
أنيقَاتٌ
ورجالٌ مؤْتلِقونَ ـ مَنِ الزُّوّارُ ضيوفُ البيتِ العالي؟
ـ ما مِنْ أحدٍ يدري، يأْتون سِرَاعاً
يصِلُونَ اللّيلَ بآياتِ الصّبحْ ويمضونَ سراعاً

وتكرّ السّنواتُ، فيُقْفِرُ من أَهلِيهِ البيتُ العالي
ذهبتْ «نورُ» كما جاءتْ
ذهبتْ دونَ وداعٍ، تركتْ سِربَ حمامٍ
ونوافِذَ عرَّشَ فيها اللّيْلَكُ والنّسرينُ
حديقةَ وردٍ جوريٍّ
ـ أأقامتْ سنةً؟
سنتيْنِ؟
ثلاثاً؟؟
(ما مِنْ أحدٍ يدري)
ـ كانت حقّاً نوراً
ـ كانت أجملَ مَنْ في الحيِّ
ـ تكادُ تُضيءُ إذا طلعتْ كالشّمسِ
ـ إذا خطرَتْ قيلَ ملاَكٌ
ـ وإذا نظرَتْ قيل غزالٌ... أَوَتذكُرُ؟
ـ كانتْ تدعُو فتجيءُ حمائمُها
وتحطُّ مرفرفَةً فوقَ يديْها
وعلى كتفيْها
ـ سبحانَ الخالقِ كم كانتْ فاتنةً
«نورُ»... وكم كانتْ
ـ قتْلاكِ كثيرون فعُودِي
يُزْهِرْ شجرُ الدَّارِ ويَهْمِ النّسْرينُ
أَلاَ عُودِي... كلُّ مَرَابِعِنَا بعْدكِ قفْرٌ،
كلُّ لياليْنا
وجَعٌ طالَ وتَسْهيدُ
عُودِي... كلُّ الحيّ معَامِيدُ
يقضونَ اللّيْلَ يُعيدُونَا
حُلُمَ الأمْسِ: تُراها تعودُ
أَتُراهَا
تذْكرُ قتْلاَها؟؟

لسُكارى الحيِّ همُومٌ وتَبَاريحُ:
هذي الدّنيَا أحْداثٌ وتصَاريفُ
تيَّمَنَا زمناً بيتٌ فوقَ التّلِّ مُنيفُ
تيّمنا... وهو اليومَ خَلاَءٌ تعصفُ فيه الرّيحُ

عُجْتُ على الحيّ أُسائلُ أهلَ الحيّ:
متى رحلتْ سيّدةُ البيتِ العالي؟
ما ردَّ الحيّ
سألتُ الحارسَ: لِمْ أقفَرَ من أهْلِيهِ البيتُ العالي؟
فبَكى
وسألتُ النّادِل: ما
أخْبارُ البيتِ العالي
فبَكى
وسألتُ النّجمَ: متى زُرْتَ حَدائقَها؟
فبَكى
وسألت الشّمسَ: متى أختُ الشّمسِ
ارتحلتْ؟
فبكت
وسألتُ، سألتُ، سألتُ
فما ردّ الحارسُ والنّادِلُ
ما ردّ النّجمُ ولا الشّمسْ
أمّا «أمُّ الخيرِ» فقد ضَمَّ بقايَاهَا رمْسْ

أغْشَى كلَّ مساءٍ
«مقْهى الأحبابِ» فألْفِي الشَّرْبَ
يُعيدونا:
ـ «رحلتْ «نورُ» وما
جفّتْ رغم البعدِ مآقينا
ـ كانت تمشي فتكادُ تطيرُ
ـ قِيلَ ليَاليها أحلامٌ وأساطِيرُ
ـ وقِيلَ...
ـ وقِيلَ...
ـ وقِيلَ...»
وأغْرَقُ في صمتي فَأَراهَا
في شرفتِها بثيابِ النّومِ
تَصُفّ أَوَاني الزّهرِ... أراها
بين حمائِمها وتِلالِ النّسرينِ... أراها
تنْضُو عند اللّيل ملابسَها... وأراها
تَعْبُرُ فارِعةً فيَضُجُّ الحيُّ لمرْآها
وأراها...
أَتُراها
مازالتْ تذكر قتْلاها؟

تونس